التأسيس الفلسفي للسوسيولوجيا

في الستينيات طور هابرماس، من خلال تحذيره لموقف هوركهايمر، الفرضية التي ترى أنه لا يمكن للفلسفة الإبقاء على زعمها بالتفكير في الحاضر إلا إذا حددت لنفسها كمهمة استخلاص شروط إمكانية معرفة هذا الأخير، بغية تقبل كل الافتراضات وتفسير الأسس. هل هذا يعني أن إبستيمولوجيا العلوم الاجتماعية تشكل فصاعدا البرنامج الوحيد لفلسفة أرادت أن تكون تاريخية بالكامل؟ ليس تماما. بالتأكيد، فهذه الفلسفة تفقد كثيرا احتكار التفكير في الحاضر (الذي تحتفظ به في ميتافيزيقيات التاريخ على سبيل المثال)، لأنها محكومة بعدم الارتباط به إلا بكيفية غير مباشرة (عن طريق مناقشة خطاب العلوم الإمبريقية). لكن، في الوقت نفسه، بعيدا عن التقيد بالمهمة الشكلية في النظر من الخارج للمعارف الوضعية التي وحدها تقدم معرفة تاريخية حقيقية، تساهم الفلسفة بنشاط في ذكاء السلوك. بل أن دورها يبدو أساسيا.

في المقام الأول، يريد التفكير الفلسفي حول العلوم الاجتماعية أن يمدها بتوضيح نقدي حول ذاتها والذي سيكون له أثر إيجابي على تطبيقاتها الفعلية. مثل هذا التوضيح ضروري، في اعتقاد هابرماس، لأنها [أي العلوم الاجتماعية]، من ذاتها، لا تشرّف دوما بشكل مُرض زعمها بتحويل العالم المعاصر إلى موضوع للفكر، ويرجع هذا الأمر إلى أسباب موضوعية. بالفعل، إن هذه الفروع

ليـــست على وعي في الغالب بالعقلنة rationalization التي تستطيع ويـــتوجب علـــيها القيام بها: من هنا، يؤكد الفيلسوف، التصورات الخاطـــئة التي يمكن أن تكون لرهاناتها، وما يتبع ذلك من توجيهات منهجـــية خاطئة، وأخيرا، تشكيل مفاهيم وهمية وفرضيات غير وافية بالغـــرض. إذن، تلقائيا، فإن علوم الحاضر لا تدرك ما تفعل؛ ومن ثمة فمـــن الـــضروري أن تخصص الفلسفة معنى لما تقوم به هذه العلوم، توضح شروط إمكانية العلم الذي تُعدّه وتنشئ صلاحية وحدود هذا الأخير.

في المقـــام الثاني، إذا كان التفكير في العلوم الاجتماعية يفيد أيضا بوصـــفه تدخلا نشطا في بناء معرفة الحاضر (ومن ثمة أخيرا في الحاضر ذاتـــه)، فـــذلك لأن الإبستيمولوجيا والنظرية النقدية مرتبطتان ببعض بشكل عميق[1]. بالفعل، ففي المجتمعات الصناعية المعاصرة، أصبح العلم والتقنـــية إيديولوجيات أساسية، وبهذا المعنى فعن طريقها أو باسمها – ولـــيس علـــى ســـبيل المثال من خلال الدين – حيث تمارس فصاعدا الهيمـــنة، التي يمكن أن توصف بالعقلية. بيد أن نظرية المعرفة التي تحتاج إلـــيها العلـــوم الاجتماعية، حسب هابرماس، سيكون هدفها بالضبط الـــتعلم مجـــددا التـــسليم بتـــنوع أشـــكال العقـــل، ومن ثمة نسبنة

---

1 راجع القضايا التي تفتتح (*CI* (p.31 [أي كتاب هابرماس المعرفة والمصلحة Connaissance et intérêt (1968), trad. Par G. Clémençon, Gallimard, 1973]: مـــن جهة، لن يكون النقد الراديكالي للمعرفة ممكنا إلا تحت صورة نظـــرية المجـــتمع، مـــن جهـــة أخـــرى، لا نستطيع الوصول إلى النظرية الاجتماعـــية إلا بواسطة تفكير ذاتي للعلم. في الوقائع، فإن ثاني أطروحاته، الأساســـية، تحـــدد مـــنظور الكـــتاب حـــيث تتجلى، أما الأطروحة الأولى فتـــتعلق بالأحرى بكتاب *TS* [أي كتاب هابرماس العلم والتقنية كإيديولوجيا La technique et la science comme idéologie(1968), trad. Par J.-R. [Ladmiral, Denoël-Gonthier, 1978.

relativisation* العقلنة المتجسدة في العلوم الدقيقة وفي التقنية. بالتالي، فإن للتفكير النقدي (بالمعنى الكانطي) حول المعارف أهمية مباشرة بالنسبة للنقد الاجتماعي الذي يؤسسه: إنه يسمح بتفكير أحادي لعلم ولتقنية أصبحا غير محدودين، وكذا بالنسبة لوجود صور أخرى من العقل مخفية أو مقهورة في مجتمعاتنا والتي يمكن أن تكون مرتبطة بقوى اجتماعية مماثلة. وبتصورنا لأشكال العقلانية كما هي في الآن نفسه موضحة في العلوم أو في الإيديولوجيات ومتجسدة في الممارسات الاجتماعية، تساهم نظرية المعرفة إذن، بكيفية مباشرة، في الذكاء النقدي لعصرنا.

باختصار، إن الفلسفة التي تريد التفكير في الحاضر ما هي إلا نقد للمعارف الموجودة، والتأمل حول الخطاب يشكل منهجها الوحيد. غير أن هذا التغير لا يتضمن تخفيضها إلى نظام متواضع كمعرفة من الدرجة الثانية، وبتراجع بالنسبة للمعرفة الجارية. فعلا، إنها تحافظ على طموح بنّاء لتأسيس العلوم الإمبريقية نظريا بل وتعيين المفاهيم الأساسية للنظرية الاجتماعية.

---

* فضلنا ترجمة لفظة relativisation إلى "تسبنة" مثلما نترجم كلمة rationalisation إلى عقلنة ونقصد بها إضفاء طابع النسبية على الشيء أو الفكرة وتفاديا لاستخدام عبارة بأكملها من أجل معنى لفظة واحدة فقد اجتهدنا في وضع لفظ "تسبنة" تيسيرا لاستعماله وتداوله. (المترجم)

السوسيولوجيا بوصفها علم الحاضر

لتسويغ هذه الوضعية المعقدة، تتضمن استراتيجية هابرماس أولا ملاحظة وتدوين مزاعم فرع علمي موجود، السوسيولوجيا، وإلى رفع العالم المعاصر إلى مستوى موضوع المعرفة[1]؛ بعد ذلك عليها أن تستدل، بغية تقييم صلاحية مزاعمها، انطلاقا من الحالة الراهنة للفرع. غير أن هذه الأخيرة تحددت، في الستينيات، بتوجه جديد ينبغي عليه في الأخير ضمان تحولها إلى علم وضعي، وفق منظرّيها وفلاسفتها، من أمثال بوبر Popper، الذين شجعوها. فالأمر يتعلق بالنسبة إلى السوسيولوجي، حسب ما يقال، نسيان الأوائل وإرثهم النظري (النظرية الكبرى، إعادة البناء التاريخية الشاملة) لكي يعرف نفسه من جديد كتقني في البحث (محادثة، سبر، إحصائيات) ويعمل على استخدام نسقي للأداة الرياضية. كما يفهم جيدا، ينسجم العلم الاجتماعي الناضج إذن وفق نموذج العلوم الدقيقة: إنه بحث محايد اجتماعيا وسياسيا، غايته تفسير العلاقات بين الظواهر بواسطة القوانين العامة المتحكم بها إمبريقيا بفضل

---

1 نقطة الانطلاق هذه ليست مبتذلة مطلقا. هكذا، نقرأ كذلك لدى فوكو بأن الفكر الحديث يعثر في تحليل الحاضر التاريخي أحد محاوره الرئيسية (أنظر على سبيل المثال «ما الأنوار؟» (voir par ex. «Qu'est-ce que les Lumières ?»In Dits et écrits, Gallimard, t. 4, p. 562-578)؛ لكن بتثمين دور كانط والفلاسفة الذين تبعوه في هذه المسألة في نشأة هذه الإشكالية، ينسبن فوكو أصالة التقليد السوسيولوجي ويُحيّد دفعة واحدة زعمه البناء للتفكير في الحاضر.

اختبارات مضبوطة؛ إنه يستند إلى وقائع محددة بوضوح، بالأحرى قابلة للقياس الكمي، خاضعة للملاحظة الصارمة، بل حتى للتجريب[1].

لقد كانت الأفكار الأولى لـ هابرماس مدفوعة بقصد نقد هذه النزعة: بالنسبة إليه، فإنها لا ترتكز فحسب على تصور أحادي للمشروع السوسيولوجي، إنما تشكل أيضا عقبة أمام إقامة معرفة عقلية عن الحاضر. في بداية مساره الفلسفي، أبدى قبوله لصرامة التشخيص الأدورني [نسبة إلى أدورنو] لحالة العلوم الاجتماعية المعاصرة المشار إليه أعلاه، وهو تشخيص في حد ذاته نموذجي للتقييم المتشائم باتساق الذي كان يحمله مؤسسو مدرسة فرانكفورت عن عصرهم. إذن فالأمر بعيد عن استخلاص نفس النتائج.

بالفعل، فإن الموقف الراديكالي لـ أدورنو يفترض أن يؤدي إلى إغواء رفض شامل لمشروع سوسيولوجيا تفهم بوصفها علما إمبريقيا، مستقلا بالنظر إلى الفلسفة، وبدا أنه مجبر على التجديد، كما جرى على منوال الإنكار أو التأمل حول استحالته، فتفوق فلسفة اجتماعية أو فلسفة للتاريخ، وحدها القادرة بأن تضمن للفكر الشعور بمعنى عميق حول الحاضر التاريخي وحول الكل الاجتماعي. على العكس من ذلك، فإن هابرماس، وبما أنه يرفض اختزال السوسيولوجيا في شكل معين للإيديولوجيا، يجد نفسه في مستوى الإحاطة بشكل عيني، وبكيفية أقل

---

1 يتعلق إذن هابرماس بلحظة في تاريخ السوسيولوجيا هي اليوم متجاوزة، حيث يمكن أن نجد دفاعا متماسكا وبراديغماتي في نصوص لازارفيلد Lazarsfeld المجمعة بالفرنسية تحت عنوان *philosophie des sciences sociales* فلسفة العلوم الاجتماعية. للتذكير فإن هذا التيار الوضعاني أثار في عهده انتقادات حادة داخل العلوم الاجتماعية نفسها، وحيث أن المثال المشهور جدا هو ذلك المتصل بالخيال السوسيولوجي لـ ميلس *L'imagination sociologique* de Mills.

ظهـــورا، بـــصعوباته وبحدوده الحالية. من دون التشكيك في أن الروابط الواقعـــية جـــدا للسوسيولوجيا الحديثة يمكنها أن تنفصل عن الدوغما* العلمـــية التي تلهمها، لقد اهتم أولا بالصعوبات التقنية للبحث التي أعيد تحديـــدها بعـــبارات وضـــعية: ألم تحمل على الاستهانة أو سوء تقدير لتكالـــيف تخـــصص مسبق يعزل الظواهر بعضها عن بعض وإلى المبالغة أو الإفـــراط في تقيـــيم ملاءمة بعض المقاربات الخاصة (على سبيل المثال السيكوسوسيولوجية)؟ ألم تنته إلى تجاهل الانحيازات الناجمة عن استعمال بعـــض المـــناهج الـــتي تقبل صلاحيتها وتضع بين قوسين التغيّر والمدة، باختصار، التخلي عن التفكير في الحاضر تاريخيا في الحاضر؟ لكنه يرتبط خاصـــة بالتباســـات وتوترات داخلية للتقليد السوسيولوجي في مجمله، لإظهـــار أن تاريخه المعاصر، من خلال تحيين واحدة فقط من الإمكانات الـــتي تحـــتويها، يترك مفتوحا طريق إعادة تفعيل الشطر الآخر، إلى هنا مهمل أو خفي، ومع ذلك يمكن أن يكون أكثر خصوبة في الواقع.

هـــذا الاتجـــاه الأصلي يتجلى بالخصوص في نص لسنة 1962، «مهام نقدية ومهام محافظة للسوسيولوجيا»، حيث سعى هابرماس إلى إبـــراز كيف أن المؤسسين الأوائل لهذا الفرع كانوا حاملين لتصوّر عن نـــزعة أكثر راديكالية من تلك التي رسمها البحث الإمبريقي في صوره المعاصرة. ما السوسيولوجيا إذا، مثلما يحدث غالبا، جعلنا من مؤلفات الكُـــتّاب الأســـكتلنديين لمـــرحلة الأنوار*، من أمثال، ميلار Millar،

---

* يقـــصد بالدوغما dogma الفكرة المبدئية التي تتأسس عليها مدرسة أو نزعة أو مذهب لا فرق في ذلك إن كان فلسفياً أو دينياً أو فنياً أو علمياً أو سياسياً وهي بمثابة عقيدة راسخة تؤمن بها. (المترجم)

* مـــرحلة الأنـــوار الإيكوسية (الأسكتلندية) Scottish Enlightenment وهي مـــرحلة شـــبيهة بمـــا عرفته بلدان ومواطن أوربية أخرى شابتها ظروف سياســـية، اقتصادية، ثقافية، دينية واجتماعية ساهمت على إحداث ديناميكية

فرغيسون Ferguson وسميث Smith، واحدة من المصادر الأساسية؟ «علم للحاضر على أقصى تقدير»، بالمعنى القوي للكلمة، يجيب هابرماس. بالفعل، «إنها تتصور تطور النوع الإنساني ضمن منظور القرن الثامن عشر الإنكليزي. موضوعها هو المجتمع المدني *civil society* الذي، ضمن إطار الأغلبية البرلمانية، جراء أرستوقراطية أضحت أكثر فأكثر برجوازية بفعل المصالح الرأسمالية، اكتسب استقلاله وصار داخل المجتمع دائرة خاصة يمكنها أن تدرس وفقا لقوانينها الخاصة». علاوة على ذلك، فإن هذه السوسيولوجا «لا تكتفي بأخذ هذا التطور [التاريخي] كموضوع؛ بل أنها تتصور نفسها جزءا منها. في هذا المستوى، تظل واعية بأصولها الحقيقية، التي هي ثورية وتحررية *whig**. بلا ريب أنها تتابع اهتماما نقديا: تحرر هذا الرأي العام الذي، في المجال السياسي، يتشكل وسط الأفراد البرجوازيين أثناء القرن الثامن عشر» (*TP*, t. 2, p. 74).

فكرية أفرزت تفكيرا فلسفيا معمقا ساهم بقسط كبير في تشكيل فلسفة للتاريخ وقاعدة للنظرية الاجتماعية والنظرية الاقتصادية ومن أهم كُتّاب تلك المرحلة فرنسيس هتشيسون Francis Hutcheson (فيلسوف وأحد الآباء المؤسسين للأنوار السكتلندية) (1694–1746)، ديفيد هيوم David Hume (فيلسوف، اقتصادي ومؤرخ) (1711–1776)، آدم سميث (فيلسوف واقتصادي) Adam Smith (1723–1790)، جون ميلار John Millar (فيلسوف ومؤرخ) (1735–1801)، توماس ريد Thomas Reid (فيلسوف ومؤسس مدرسة الذوق الفطري) (1710–1796)، جيمس بيرنت James Burnett (فيلسوف وفيلولوجي) (1714–1799) وآدم فرغيسون Adam Ferguson (كاتب ومكتبي) (1723–1816). (المترجم)

* "الويغ Whig" هو أحد الأحزاب التي كانت موجودة على الساحة السياسية البريطانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وقد خلفه في منتصف القرن التاسع عشر حزب الأحرار. كان أعضاء هذا الحزب أو الويغز معارضين للنزعة الملكية المطلقة ولعبوا دورا حاسما في ثورة 1688. وكان حزب الويغ خصما لحزب توري Tory. (المترجم)

إن السوسيولوجيا، في الأصل، تثبت نفسها باعتبارها علما تاريخيا كـــاملا للحاضر، بمعنى مزدوج للوسط الذي تجد فيه أصلها والموضوع التي تجعله مركزيا ولكن أيضا بوصفها علما يدمج تأمل الوعي بتاريخية المعـــرفة كما يفرزها. بعد ذلك فإنها محاولة توضيح حاضر متصور في كـــل مداه – في الوقت نفسه زمنا تاريخيا يتطلب أن يستعاد ومجموع النـــــزعات الـــتي يمكن أن تدرك ثانية بواسطة القوانين –، باختصار، لحـــركة شـــاملة واتـــساق مرحلة مفسرة ضمن منظور في الآن ذاته تعاقبـــــي (دياكرونيكـــي Diachronique) وتزامني (سانكرونيكي Synchronique). إن سوســـــيولوجيا الكُـــــتّاب الإيكوســـــيين (الإســـكتلنديين) هي في نهاية المطاف ذات ميل إلى اهتمام عملي. وإذا كـــان هابرماس يؤكد بأنها كانت طريقة بالنسبة للبرجوازية في الوعي برؤيتها للعالم وتشكيله، فلا يعني ذلك بداية نسبنة من الجانب التاريخي مـــساهمتها؛ بل بالأحرى هو اعتراف بفضلها في فهم أن معرفة الحاضر لـــيس لهـــا ميل للحياد، بشكل عام، وبما أنها محكومة بواسطة مصالح اجتماعـــية محددة، وفي أحسن الحالات، مستنيرة بواسطة إرادة توضيح شروط فعل ممكن في التاريخ. في الأصل، لقد تم تصور العلم الاجتماعي بوصـــفه مؤســـسة ملـــزمة بتشكيل رأي عام باحث عن إدراك ما هو ومـــا ينبغي أن يقوم به؛ لقد أراد الإسهام في مجهود جماعي للتأمل عبره يعمل أعضاء مجتمع على تحقيق الاستقلال الذاتي للفكر وللفعل، والذي هـــو في جوهـــره نقـــدي وثوري بالمعنى الذي يريد بالضرورة تذليل العقـــبات من كل نوع، سياسية، اجتماعية أو إيديولوجية، التي تناقض هذا الاستقلال.

يقتـــرح هابـــرماس إذن تفـــسيرا أصليا لظهور السوسيولوجيا باعتـــبارها فرعا مستقلا. إن دلالتها الأولى ليست، كما نقرأها لدى

كـــونت* أو دوركايم**، في كونها جعلت من الممكن الامتثال عبر فهم لمـــيدان يشكل نسيج وحده *sui generis* للواقع، ذلك المتعلق بالحياة الاجتماعـــية والتاريخية، والتي بقيت إلى حد الآن متروكة للتأمل أو إلى تقديـــرات الحـــس المـــشترك. فالأمـــر تعلق بالأحرى بتدخل نموذج مـــستحدث للمعـــرفة لأنـــه متجذر في الحياة وموجه بوعي، في آخر المطـــاف، عـــن طريق الاقتضاء العملي، أو كذلك ببروز شكل جديد لفهـــم الذات المحررة المنظر لها من طرف الفلاسفة. الموجه إلى إيضاح

---

* أوغيـــست كـــونت Auguste Comte (1798–1857)، فيلسوف فرنسي يعد واضـــع المـــذهب الوضعي الكلاسيكي الذي كان له أثره البالغ على المعرفة والعلـــوم الإنـــسانية فـــي القرن التاسع عشر ويعتبر أيضا أحد مؤسسي علم الاجتماع وغالبا ما يعزى إليه عرف خاصة بتحقيبه للعقل البشري بالمراحل الـــثلاث (اللاهوتـــية، الميتافيـــزيقية والوضعية أي العلمية) كما اهتم كذلك بتصنيف العلوم من خلال تطورها الذي انتهي بحسبه إلى المرحلة الوضعية أي العلمـــية ومنها العلوم الوضعية أو الدقيقة أو الصلبة كان يريد الوصول إلى القوانين التي تحكم التنظيم الاجتماعي. من أعماله البارزة: الفصل العام بـــين الآراء والرغبات (1819)، محاضرات في الفلسفة الوضعية (1830–1842)، دروس فـــي العقـــل الوضـــعي (1844) الديانة الوضعية (1852). (المترجم)

** إميل دوركايم Emile Durkheim (1858–1917) سوسيولوجي فرنسي يعد مـــن أبـــرز مؤســـسي علـــم الاجتماع المعاصر، أصبح مدرسا للبيداغوجيا وللعلـــوم الاجتماعـــية ســـنة 1887 ثـــم خلف سنة 1902 فرديناند بويسون Ferdinand Bouisson فـــي السوربون ولم يوسع رسميا تدريسه إلى السوسيولوجيا إلا فـــي ســـنة 1913. يكمـــن إســـهام دوركايم الأساسي في علم الاجتماع مـــن خـــلال تكوينه الذي ينتسب فيه إلى الوضعية وحيث أنه اعتقد بدراسة الظاهـــرة الاجتماعـــية باســـتقلال صـــلتها بالأفراد بل إنه ذهب إلى التأثير الممارس من قبل ما أسماه بالضمير الجمعي على الفرد وقد أرجع الظواهر الأخلاقـــية إلى ظواهر الاجتماعية التي اعتبرها مستقلة عن ضمائر الأفراد. مـــن أهـــم مـــؤلفاته: فـــي تقسيم العمل الاجتماعي (1893)، قواعد المنهج الاجتماعي (1895)، الانتحار (1897)، الأشكال الأولية للحياة الدينية (1912)، محاولة في السوسيولوجيا العامة. (المترجم)

الحاضر ومن ثم تنمية قدرة الأفراد والجماعات على الفعل على تاريخهم الخـــاص، السوسيولوجيا إذن لا تعد من بين العلوم الأخرى؛ فهي في ارتـــباطها بمثال التحرر الخاص بالأنوار، تعتبر بامتياز الفرع الذي، في الظـــروف الحديثة، له قابلية إجراء وساطة بين النظرية والتطبيق بتوفير فهم للذات يكون في الآن نفسه عيني وصارم.

بهـــذا يمكنـــنا التأكيد على أن السوسيولوجيا الوضعانية المقيدة ببحث إمبريقي متخصص وتقني، مثل تلك التي رآها هابرماس مهيمنة في الستينيات، ترتكز على التخلي عن هذه الخصائص الأصلية الثلاث. في البداية، إذا استمرت في النظر إلى الحاضر باعتباره الموضوع الأول لأبحاثها، فذلك من دون الوعي الحاد الذي كان لدى السوسيولوجيين الأوائـــل على اعتبار أنه كلما تعلق الأمر بالحاضر، فالمنهج والموضوع ليـــسا منفـــصلين تمامـــا. وبالفعل، فالسوسيولوجي الحديث، خلافا لـــسابقيه، يحـــاول ألا ينظر إلى سلوك ميدان تطبيق خاص لمناهج من الممكـــن أن يكون نموذجها موجودا ضمن فروع أخرى، مثلما يشهد علـــى ذلك التقييم المفرط لأشكال الفكر (البحث عن قوانين عامة، المـــنهج التجريبـــي، الترييض) المبررة بواسطة مذاهب وضعية مختلفة. إنه يسعى إذن إلى فهم ذاته بوصفه متحرر، خارجي عن المجال الذي يفسره.

في مقـــام ثـــاني، يمكننا الحديث عن تدهور السوسيولوجيا لأنه، وأثـــناء التحولات الحديثة الناتجة بفعل النـــزعة الإمبريقية والتخصص، فقد غفلت عن الاهتمام بإعداد منظور تاريخي للحاضر ونسيت خصوبة التفـــسيرات المتصلة بالكل الاجتماعي. بحجة الصرامة، وجدت دراسة الظواهـــر الخاصة نفسها محرومة من هذا المصدر الضروري والذي هو مرجع لمعنى مرحلة، لنـــزعاتها أو السياق الاجتماعي الشامل.

في مقام ثالث، فإن إضعاف السوسيولوجيا الحديثة يمكن أن يفسر بالتخلي عن المشروع النقدي لبداياتها. يقترح هابرماس مقداراً نسبيا بسيطاً لهذه الظاهرة، مستوحى من أدورنو، وذلك بتطوير موضوع الانحراف التكنولوجي والتكنوقراطي للعلوم الاجتماعية. فأثناء مأسستها* المؤخرة، لم تصمد هذه الأخيرة أمام إضفاء الطابع الأداتي عليها من طرف جهاز الدولة والقوى الاقتصادية. إن الإلحاح على «الحياد» العلمي يغطي الأمر التالي وهو أنها [أي العلوم الاجتماعية] انتقلت إلى نظام مصادر لسلطة تستهدف تحكما أكثر فاعلية على المجتمع عن طريق المعلومة، بواسطة التوقع والتخطيط. حتى هنا وحيث أن اختبار السوسيولوجيا الذي يبدو مستقلا عن معارف الخبرة المرتبطة بدول أو مؤسسات، يؤكد الفيلسوف، يتحرر فصاعدا بصعوبة من الانجذاب الذي تمارسه أشكال البحث التي تكون في انسجام طبيعي مع حاجات البحث الإداري.

لا يشك هابرماس بأن تكون هذه النزعات المنكفئة الثلاث هي التي تقف وراء الصعوبات الحقيقية المواجهة في التطبيق الحالي للعلوم الاجتماعية: وبالمثل فإن الوعي بأصالتها الذي جعل اكتشافات سوسولوجيا الأنوار ممكنة، بالمثل، فإن إضعاف هذا الوعي هو ما يفسر بأن الوعي اليوم فقد الوسائل لإنجاز مشروعه في التوضيع الإمبريقي للعالم الحاضر، أن يجابه دوما حدود مناهجه وفرضياته ويحيا تبعا لنظام أزمة دائمة. إذن وعلى العكس، فقد انبثق نموذج معياري قوي من تحاليل تاريخية، بالتأكيد مقبول من الناحية الإبستيمولوجية، حيث

---

* مَأسسَة ترجمة للفظة Institutionnalisation أي إضفاء الطابع المؤسساتي على فكرة ما أو كيان معين وهي من اللفظات التي باتت متداولة لدى الكُتّاب والمترجمين العرب وهي كغيرها من اللفظات استخدمت لتفادي تضخم العبارة. (المترجم)

يـــتوجب مقارنـــته بمعـــارف موجودة عندما يزعم المساهمة في علمنا بالمعاصـــر: إن الأمـــر يتعلق بمعرفة الحاضر التي تفترض بوعي تاريخيته، والـــذي لـــن يستنفذ إذن مناهجه إلا بذاته، ضمن اقتضاء التلاؤم مع موضـــوعه؛ لمعـــرفة نظـــرية طموحة (بفضل ازدواجية سياقها الكلي والتاريخـــي)؛ وأخيرا، لمعرفة تؤكد نـــزعتها النقدية والتحررية، أي في مـــيلها مـــن خلال مغزاها في تنمية قدرة الفعل الأفراد والجماعات في الـــتاريخ. هذا التقديم لمهام السوسيولوجيا، أكثر أصالة تاريخيا – يمثل الأصـــل المـــرفوض للعلوم الاجتماعية اليوم –، سيكون خاصة ضمان تفكـــير نقـــدي للمعارف، وإذن بطريق غير مباشر الملاءمة الإمبريقية. يـــوجد هنا على الأقل، كما يؤكد هابرماس، إطار أن يكون للحاضر فرص أكثر للتفكير فيه، بالمعنى المؤكد للكلمة. يبقى فقط معرفة ما إذا كان النموذج المعياري ليس ملزما بشكل مفرط حتى يمكن الاحتفاظ به بمصداقية ضمن الظروف الحالية للعمل العلمي.

نقد الماركسية

حتى يتسنى حل هذا المشكل، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الأمر الآتي: ألا تظهر الثقافة المعاصرة فحسب ابتعادا متعاظما مقارنة مع نموذج للفكر التاريخي يفترض أنه الوحيد الملائم، والذي لا يترك للفيلسوف سوى علاقة جدلية بالعلوم، ذات حنين إزاء السوسيولوجيات التأملية القديمة. وبالفعل، فإن هابرماس قد تصوّر، في الستينيات، الماركسية بوصفها أفضل مقاربة متاحة لهذا النوع المثالي من المعرفة العقلية للحاضر التاريخي الذي يفهم نفسه حقا كما هو ويطور مجموع الافتراضات المتضمنة في هدفه – فحجة راهنية المشروع السوسيولوجي مُشوهة اليوم من طرف النزعة الإمبريقية.

إن الماركسية باعتبارها تأويلاً شاملاً للمعاصر، وبأكثر تدقيق لبنيات ونزعات نمط الإنتاج الذي يشكل القلب، وبتعريفها للحاضر بوصفه أزمة وبجعل مهمة المعرفة التاريخية هي حل هذه الأزمة، جذّرت الوعي بالانتماء التام لنظرية تلك المرحلة، والتي كانت متعلقة بالكُتّاب الإيكوسيين [الإسكتلانديين]. إنها تندمج في الوعي بتاريخية مقولاتها وموضوعاتها الذي يحفظها من التوجيهات المنهجية المزيفة ويبرز من ثمة صلاحية النموذج اللاوضعي للعلم الاجتماعي: ذلك المتعلق بنظرية تستند إلى فردانية تاريخية (النظام الرأسمالي) كما هو متصور في خصائصه المتميزة وتطوراته، مع الأخذ بعين الاعتبار ترابط أجزاء الكل الاجتماعي، وعدم تقليص بحث التحكم الإمبريقي في المنطوقات إلى

وضـــع اختبارات القوانين العامة المفترضة. أخيرا، فإن الماركسية تماهت مـــع الهدف النقدي والعملي؛ إنها تتصور أولا العلم الذي أقامته بوصفه وســـيلة وضعت تحت تصرف الطبقة العاملة حتى تصبح فاعلة، بواسطة الـــثورة، لـــتاريخها الخاص: «لقد جعل ماركس Marx، هكذا كتب هابـــرماس في صـــيغة تُذّكر بـــ فيكو Vico، من الإرادة لفعل التاريخ افتراضا لإمكانية معرفته» (*TP*, t. 2, p. 54). رأس المال Le Capital ومـــن هذا المنظور، ينبغي أن يُقْرأَ وكأنه تحليل جوفي الشروط التي من خلالهـــا يمكـــن للـــناس «صنع التاريخ»، مثل دراسة العقبات العملية والفكـــرية التي يصادفونها، ضمن المجتمع المعاصر، في إثباتهم الحر لقوتهم علـــى الفعـــل[1]. بكل تأكيد فالأمر يتعلق بشكل أكثر خصوبة لمعرفة الحاضر (الواقع).

ومـــع ذلـــك، فليست التحولات الموضوعية الحاصلة في التاريخ الحـــديث هـــي التي تمنع استعادة محضة وبسيطة لمسعى ماركس ضد السوسيولوجيا المعاصرة بقدر ما هي عدم كفاية التأسيس وما تفرزه من «نمط إبستمولوجي خاص» (*TP*, t. 2, p. 24) كالذي اكتشفه وطبّقه، وهـــو عجز يمثل هنا أيضا رد فعل على محتوى التحليلات العينية. فمن

---

1 هكـــذا، على سبيل المثال،«إذا كان ماركس مهتما بكيفية نقدية، والحالة هذه ضـــمن قـــصد تقديم حل عملي للأزمة الموجودة، في التعارض بين العمل المأجور ورأس المال، فذلك [...] لأنه يعتقد باكتشافه في هذا الحل أصل هذا الديالكتـــيك فـــي المـــواربة ذاتها الذي يمنع الإنسان من النظر في ذاته هذا الموضوع للتاريخ الذي هو مع ذلك قائم وتأكيد حقوقه كما هي كذلك» (TP, t. 2, p. 32). إن الاقتـــصاد الـــسياسي لرأس المال يحلل القوانين واتجاهات الـــتقويض الذاتـــي لـــنظام اقتصادي؛ لكنه يكشف أيضا ميكانيزمات الإنتاج الاجتماعـــي للوهم والجهل التي تعيق أو تؤخر انبثاق الذاتية التاريخية الذي ينبغـــي أن يكون عامل هذا التقويض. بالنسبة إلى هابرماس، فهذا المشروع الثاني، في الواقع، ما يعطي معنى للأول.

المهـــم بالتأكيد – وهابرماس، بعد النظرية النقدية الأولى، يطبّق ذلك، لا ســـيما في التقنية والعلم بوصفها إيديولوجيا – محاولا تحيين النظرية الاجتماعية الماركسية للأخذ بعين الاعتبار التحولات الخاصة بالرأسمالية المـــتقدمة وإعطاء مضمون جديد لنموذج خصب لفكر نقدي متمحور حـــول أزمـــات العالم المعاصر. فقط، نجاح مؤسسة كهذه يفترض أن نكـــون علـــى بيّنة بالعقبات الفلسفية التي منعت ماركس من إثبات، تطوير وانخراط دائم في الثقافة الحديثة وهو ما يبدو لـــ هابرماس بمثابة إسهام أساسي: إن اكتشاف الاستقلال الذاتي الابستمولوجي «للنقد» بانتـــشاره في «العلـــم»، بمعـــنى لمعرفة للعالم المعاصر تهدف إلى الوعي وتأكـــيد قـــدرة الفعـــل في الـــتاريخ («التحرر»)، تحصل في الحاضر وللحاضر.

بالفعـــل، يـــبرهن كاتـــب *المعـــرفة والمصلحة*، حتى يكون هذا الاكتـــشاف مؤســـسا وخصبا، يجب توفر على الأقل شرطين نظريين. ينبغـــي أولا على الأنثربولوجيا التي هي على صلة بها أن تعترف بواقع وبقيمة متعلقين بالجهد النظري للكائن البشري بغرض توسيع استقلاله الـــذاتي وتأثيرها الواعي على التاريخ. بيد، أنه ومن وجهة النظر هذه، فـــإن الـــتحديد، في الماديـــة التاريخية، للعمل باعتباره ماهية الإنسان أو بوصـــفه نشاطا مكونا أساسيا للنوع الإنساني يعد مشكلة. من دون شك، ينبغي الإقرار بأن، «في مستوى أبحاثه المادية، يعمد ماركس دوما إلى الاعـــتماد علـــى ممارسة اجتماعية تتضمن العمل والتفاعل؛ بحيث تتوسط صيرورات تاريخ الطبيعة من خلال النشاط الإنتاجي وبواسطة تنظيم تبادلاتها» (*CI*, p. 85). بعبارات أخرى، ولأن ماركس يطابق، في الممارسة، بين صيرورات لا تشتق ظاهريا من دائرة الإنتاج ويقترح إذن وجود أنماط أخرى من النشاط المُكوّنة للنوع الإنساني، فهو يسمح

بالـــتفكير بأنه وضمن وسط حيث لا يشير مفهوم «علاقات الإنتاج» بالتأكـــيد إلا بكيفية مختزلة، ذلك المتعلق بالهيمنة الممأسسة، للشرعيات الإيديولوجـــية وللـــصراعات الفعلـــية الهادفة على الإطاحة بهذه وحل الأخرى، أين يكون للنشاط النقدي الثوري معنى. إنه يتيح أيضا بفهم أن المعرفة التي تجد أصلها في هذه الدائرة هي أولا تلك الخاصة بالتفكير الـــذاتي للـــذوات التاريخـــية. لكن ومثلما أن هذه التوجهات، حسب هابـــرماس، لا تتـــيح فرصـــة توضـــيح كافي وليست منكسرة ضمن أنثربولوجيا التي، على ما يبدو، تستمر بشكل رسمي في النظر إلى العمل على أنه الميدان بامتياز للخلق الذاتي للنوع، القاعدة الفلسفية التي ترتكز عليها معرفة الحاضر متصورة وكأنها «نقد» تبقى جد محدودة.

الـــشرط الثاني الذي يتوجب على تأسيس هذا العلم للحاضر أن يجيب عنه، بالمعنى القوي، والذي يعتقد هابرماس بأنه، وحده، من يمنح حـــصنا ضد الفهم الأحادي لمهام العلوم الاجتماعية المهيمنة حاليا، في الـــوقت نفسه الذي تعطي فيه مجددا مغزى لاقتضاء رابطة بين النظرية والتطبـــيق، هـــو أيـــضا بسيط لإدراكه كلية. إنه يتضمن قبول ثنائية إبـــستمولوجية أولية، وبعبارة أخرى فأن يتعلق الأمر بعلم زمن حاضر، بـــسبب الخصوصيات التي تم التأكيد عليها، ليس تماما من نفس طبيعة علـــوم الطبيعة التي تهدف أساسا إلى توسيع قدرتنا على الظواهر. هنا أيضا، يريد [كتاب] *المعرفة والمصلحة Connaissance et intérêt* إبراز بأن الممارسة النقدية لماركس، تستعمل خصائص لصورة ملائمة لمعرفة الحاضر، لا هي تؤسسها ولا تفكر فيها، وهي بهذا تضعف موقفه. «إن مـــاركس لم يوضح أبدا المعنى المحدد لعلم للإنسان يتحقق بوصفه نقدا للإيديولوجيا، في تعارض مع معنى أداتي لعلم الطبيعة. مع العلم أنه هو نفـــسه من وضع علم الإنسان في صورة نقد وليس كعلم للطبيعة، فقد

اســـتهواه على الدوام ترتيبه إلى جانب علم الطبيعة. و لم يحكم بضرورة تبرير نظرية المجتمع من وجهة نظر نقد المعرفة» (*CI*, p. 78). فبمماثلته دون قـــيد أو شرط، على الأقل في بعض أقواله، علم الإنسان بالعلوم التجـــريبية، اتهم ماركس بعدم قدرته على تصوّر بكيفية نقدية حدود علم الاقتصاد الذي كان يعيد بناءه، ولا سيما في أنه لم يُرد و لم يستطع إعطـــاء نظـــام (قانون) خاص للمعرفة النقدية التي كان يمارسها، وهي بطبـــيعة الحال لا تقبل المقارنة بالنموذج الوحيد للعلم المتومضع الذي يقـــول أنـــه يتقيد به[1]. يمكننا إذن، تحت مظهرين مهمين، أنثربولوجي وإبـــستيمولوجي القول أنه بإنكار في الوقت ذاته في أصالته المبدئية وفي استقلاليته الذاتية باعتباره علما حيث تتأكد معرفة الحاضر.

1 «إن النـــزعة العلمـــية المادية [الموظفة في الخطاب الرسمي لماركس حول عمله الخاص] لم تعمل سوى على تأكيد مرة أخرى ما توصلت إليه المثالية المطلقة: إزالة نظرية المعرفة لفائدة علم كوني [مزعوم] متحلل من روابطه [الـــنقدي]، وهـــنا بطيعة الحال ليس من معرفة مطلقة، لكن بمادية علمية». (CI, p. 96)

تأسيس السوسيولوجيا

حـــتى وإن ســـاهم في الحفاظ على تقليد معرفة بالحاضر حيا من خلال فهم بمعنى راديكالي وتام، فإن الماركسية لا تشكل إذن اليوم قوة مقاومة كافية لانحطاط علم الاجتماع، على الأقل في حجبه، ضارة من وجهـــة نظره ذاتها، لمشروعها المُؤسس. فعبر عدم اكتمالها، إنها تشجع بالأحـــرى ســـوء الفهم الذي يماثل المطالبة بنظرية نقدية للمجتمع مع مشروع زائف (باطل) لتجديد فلسفة اجتماعية قديمة ؛ من خلال بعض مظاهـــره – أطروحة وحدة العلم على سبيل المثال –، فهو يلتحق حتى بالمذهب الوضعي الذي هو في الآن نفسه الفاعل والنتيجة لهذا التدهور.

في ســـنوات الستينيات، عبر مجابهتها للجدالات التي تشككت في مـــشروعية حتى وجود نظرية نقدية للمجتمع، رأى هابرماس أن دفعة فلسفية قوية وحدها تسمح بفك هذه الوضعية حيث لا شيء يبدو أنه يجـــب مخالفة الإضعاف الوضعاني. إنه يفترض أن هذا الأخير يجب أن يأخـــذ شكل تأسيس السوسيولوجيا *fondation de la sociologie* بوصفها معرفة الحاضر ويفهم هذا الحد بمعنى الفلسفة الكلاسيكية: فالأمر يـــتعلق بوضع بصورة قبلية *a priori* – وهو ما لا يفيد تجاهل المكتسب العلمي الموجود، الذي يظل النقطة الوحيد كدليل – مشروعية وحدود معرفة، لتحديد المعنى، الرهانات، وحتى إلى حد ما، المناهج.

إن إجـــراء كهـــذا ينبغي أن يستجيب لهدفين. من جهة، ينبغي الـــتأكد مـــن أن الخصائص المستخلصة انطلاقا من النموذج التاريخي

للسوسيولوجيا الإسكتلندية في القرن الثامن عشر – الاستقلالية الذاتية المنهجية للعلوم الموجهة عن طريق تحليل المعاصر، توجهاتها النقدية والعملية، إلخ. – هي فعلا مبنية على العقل، ومن جهة أخرى، يجب أن نقبل بالروابط اللازمة، التي برزت إبان المناقشة مع الماركسية، والتي يقيمها هدف نظري مثل هذا مع بعض المشاكل الأنثربولوجية والإبستيمولوجية الأساسية. غير أن تأسيسا مثل هذا لا يتطلب شيئا أقل من إعادة تعريف العقل. بالفعل، إذ أمكن للثقافة الحالية أن تتمثل باعتبارها تقدما التخلي عن الصورة الأصلية لمعرفة الحاضر، فذلك لأن المذهب الوضعي المهيمن قد تأتى تدريجيا إلى مماثلة العقل مع شكل المعرفة الموضح بواسطة العلوم التجريبية الحديثة. وإذا كان من الصحيح بأن العلوم الاجتماعية للحاضر تتقاسم مع هذه الأخيرة معايير أولية في الصرامة والصلاحية، فمن المحتمل أيضا بأنها تنتشر ضمن إطار متميز جزئيا. إن محاولة إضفاء المشروعية على النظرية النقدية ينبغي بالتالي أن ينطلق من نزع الإطلاقية عن الصورة المكرسة من قبل المذهب الوضعي، من أجل إعادة تفعيل فكرة التنوع البنّاء، غير القابل للاختزال، للممارسات العلمية، إذن لوجوه العقل.

ولهذا الغرض، ينطلق هابرماس من موضوع، صار عاديا في الفلسفة الحديثة للعلوم، وبحسبه فإن بناء معرفة إمبريقية لا يكون ممكنا إلا تبعا لإطار نظري محدد، وبشكل أعم، موجّه بواسطة افتراضات تجعل التجربة ممكنة ولا تشتق منها. هذا المبدأ لم ينته به إلى تثمين تاريخاني في تنوّع «البراديغمات Paradigmes» أو «الإبستيميات épistémés»، التي أمكنها أن تشكل خلفية للمعارف العلمية في مرحلة ما أو لفرع علمي، وإنما إلى مسعى يريد أن يكون ترنسندتالي بوضوح. يتعلق الأمر بتماثل اهتمامات معرفة عبر تاريخية، بمعنى الأشكال

الأساسية لاختبار الذهن التي تتأسس بالنظر إلى بعض الغايات والتي تتطابق مع نمط خاص في الكشف عن الواقع. بالنسبة إلى هابرماس، لا يوجد في النهاية سوى ثلاث أنواع من الغايات – تقنية، عملية، تحررية – وتبعا لها يمكن للمعرفة أن تتوجه وأن تتهيكل. مع كل واحدة من المصالح تتطابق صورة للعقلانية ومجموعة من العلوم يمكن الكشف عنها بوضوح. سنرى بأنه في نسق العلوم كما هو ممهد له، فإن معرفة الحاضر كما تفهم بمعنى راديكالي تحتل مكانة رئيسية.

العلوم الإمبريقية – التحليلية. – في هذه المجموعة الأولى، التي تشمل علوم الطبيعة وأجزاء من علوم الإنسان الأكثر قابلية لتبنّي مساعيها، يقابلها هابرماس بمصلحة *تقنية* intérêt *technique*: إنها موجهة في نهاية المطاف عن طريق القصد بإخضاع الواقع إلى الإرادة الإنسانية. يتعلق الأمر هنا بإبراز أن العقلانية المطبقة من طرف هذه الفروع والتي ارتقت بها الوضعية إلى مصاف نموذج وحيد لكل عقلانية هي في الواقع جد خاصة: إنها تستجيب إلى واحد من التوجيهات الممكنة للفعل، بمعنى امتلاك الطبيعة لغايات التحكم، عن طريق الحساب، التوقع والتدخل الفعال.

إن اختزالا للعلوم الدقيقة دون فروق دقيقة، حسب منظور ضمنيا مُخبِر، بغرض تقني للتحكم في الواقع يبدو أنه يتبع التحليل الهيدغيري [نسبة إلى الفيلسوف هيدغر Heidegger] للتقنية الحديثة، الذي وفقا له فإن تطور العلوم يرتكز على مشروع، توضح لأول مرة مع ديكارت، الهيمنة على الطبيعة عن طريق الإرادة. وإذا كنا بعيدين عن ذلك، فذلك راجع أولا لأن هابرماس يرفض القرار التاريخاني historiciste الذي يرتكز على جعل العقلانية الآداتية المعلنة من طرف العلوم والتقنية المعاصرتين أثرا لمصير خاص بالحداثة ويحددها جوهريا. لكونه

أنثـــربولوجيا ماديا، فإنه يرجعها إلى عمل متصور كنمط وجود ممكن وضـــروري للإنـــسان أمام العالم. فضلا عن ذلك، فإن القصد الذي يشرف على هذا التحليل ليس هو، مثلما هو الشأن لدى هيدغر**، نقد العقل كما هو، وإنما نسبنة (إضفاء النسبية) شكل من أشكال العقلنة، ذاك الـــذي يسعى، في المرحلة المعاصرة، إلى إخفاء الآخرين. إنها إعادة تفعيل العقلانية وليس هجرانها، ما ينتظره هابرماس هو تجاوز أحاديات العقلانية الحديثة.

---

* مارتن هيدغر Martin Heidegger (1889–1976)، فيلسوف ألماني معاصر وواحـــد مـــن بـــين أهم الفلاسفة في القرن العشرين، انجذب في بداية حياته الفكرية نحو اللاهوت ثم بالفلسفة فانشغل كثيرا بمسألة الكائن وهي المعضلة التـــي كانت في صلب انشغالات الفلاسفة السابقين على سقراط لكنها أهملت بعـــد ذلك من طرف الميتافيزيقا الغربية لكن هيدغر قاربها ظاهريا بالوضع الإنـــساني (الكيـــنونة البشرية أو الدزاين Dasein). وكتابه الوجود والزمان Sein und Seit (1927) يعـــد علامـــة بـــارزة في تاريخ الفكر الفلسفي. بدأ حياته تلميذا لـــ هوسيرل ثم انعطف على الأنطولوجيا التي أصبحت مقاربته لهـــا ذات وزن وأثر على فلسفات عديدة منها الوجودية والظواهرية البعدية والتأويلية الألمانية وما بعد الحداثة بل وحتى العلوم الإنسانية كالتحليل النفسي والتيولوجيا. من كتبه : مدخل إلى الميتافيزيقا (1935)، ما الشيء؟ (1935–1936)، المفاهـــيم الأساســـية للفلـــسفة اليونانية (1941)، رسالة في النزعة الإنسانية (1947)، ما التفكير؟ (1951)، نهاية الفلسفة ومهمة الفكر (1966). (المترجم)